جامعة الزقازيق
كلية الآداب
قسم الفلسفة

الفينومينولوجيا عند سارتر

بحث مقدم من متطلبات
الحصول على درجة الماجستير في الآداب
من قسم الفلسفة بالزقازيق

مقدم من
أمنة محمد قاسم عبدالله

٢٠١٩

الفينومينولوجيا عند سارتر

مقدمة:

ليست الفينومينولوجيا مذهباً محدداً أو فلسفة بعينها، وإنما هي اتجاه أو منهج، وكل ما هنالك بعد ذلك مجرد فلسفات فينومينولوجية أو تطبيقات لها. فليس هناك فلسفة معينة تستطيع أن تقول عنها الفلسفة الفينومينولوجية، وعلى الرغم من أن "أدموند هوسرل" هو المؤسس الفعلي لهذا الاتجاه، إلا أن الفينومينولوجيا لا تخص هوسرل وحده، وإنما تضم عدداً كبيراً من الفلاسفة الذين قاموا بتطوير هذا المنهج ومنهم هيدجر وميرلوبونتي وباشلار وإنجاردن وسارتر.. وغيرهم[١].

المعني الاصطلاحي والفكري للفينومينولوجيا:

إذا عدنا إلى الجذور اليونانية لكلمة "فينومين" Phenomenon فإنها تعني في هذه اللغة "ما يظهر نفسه" أو "الظاهرة"، وبإضافة كلمة "لوجيا" المشتقة من كلمة "لوجوس" Logos تكتمل كلمة فينومينولوجيا، وبذلك فإن الفينومينولوجيا تعني حرفياً "علم الظواهر"[٢].

إن المقطع "فينومين أو "ظاهرة" مشتق من الفعل اليوناني الذي يعني التجلي أو الظهور، وهو نفسه مشتق من كلمة أخرى تعني مجموع ما هو عرضة لضوء النهار أو ما يمكن أن يسلط عليه الضوء أو ينكشف للأعين. وقد جعل اليونانيون هذا المعني مكافئاً ببساطة لكل ما هو كائن أو موجود. وهذا الذي هو عرضة لضوء النهار مشتق بدوره من الجذر Pha (فا)، والذي يشير إلى ذلك الذي يظهر بذاته أو يتميز بالإظهار الذاتي.

---

(١) حسن حماد: المشاعر عند سارتر، مدخل للتحليل النفسي الوجودي، مجاز للترجمة والنشر، القاهرة ٢٠١٨، ص ١٢.

(٢) كاثرين موريس: جان بول سارتر: ترجمة أحمد على بدوي، المركز القومي للترجمة، مصر، الطبعة الأولي ٢٠١١، ص ٥٩.

وهكذا فإن الكائن أو الموجود يظهر أو يتجلى بطريقة تلقائية، والتجلي هنا يتعدد بتعدد الوسائل التي تسمح لنا بالاقتراب من ذلك أو النفاذ إليه.

إن المركب "فينومينولوجيا" يعني أن نترك الأشياء تظهر على ما هي عليه، أو تكشف عن نفسها، وهو عكس المعني الذي اعتدنا عليه، أي المعني الذي يرى أننا نحن من يشير إلى الأشياء، غير أن هذا الظهور ينبغي أن يكون ظهورا على النحو الذي يكون عليه الشيء، وليس على نحو آخر مغاير له. وبهذا المعني فإن الفينومينولوجيا تجعلنا نرى ما كان محجوباً، وتعمل على كشفه وإخراجه من خفائه ليبدو مرئياً[٣].

أسس المنهج الفينومينولوجي:

يقوم المنهج الفينومينولوجي على عدد من الأسس أو المبادئ، والتي يمكن لنا أن نحددها فيما يلي:

١ـ نقد العلوم التقليدية:

تبدأ الفينومينولوجيا من الوقائع التي يهملها العلم التقليدي، والتي يتركها بلا توضيح بوصفها وقائع جاهزة وبديهيات واضحة بذاتها. إنها تبدأ من الخبرة المباشرة بالعالم والأشياء، أي من معني أو ماهية الأشياء كما تظهر في خبرتي وليس باعتبارها وقائع مستقلة عني. هذه المنطقة يتجاهلها العلم ولا يلتفت إليها، ومن ثم فإنه يتجاهل الإنسان، وهذا ما كان يقصده هوسرل من كلامه عن أزمة العلوم الأوربية، إنها أزمة نسيان الإنسان. ونقد الفينومينولوجيا للعلم هنا ليس صادراً عن أي عداء مضمر تجاه العلم، لأن الفينومينولوجيا نفسها تطمح لتأسيس

---

(٣) جمال مفرج: الفينومينولوجيا الهيرمينوطيقية عند هايدغر أو الفينومينولوجيا بوصفها تأويلاً: دراسة منشورة بمجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقص، وحدة بحث الفينومينولوجيا، ٤ فبراير ٢٠٠٦، ص ص ٤٨-٤٩.

علم للماهيات يمد العلوم بأساس تقوم عليه، وذلك بأن تصف وتحلل ماهية الموضوعات والمفاهيم التي تقدمها العلوم بوصفها وقائع جاهزة مثل: البدن والجمادات ومفردات الطبيعة ..إلخ.

ونقد هوسرل لا يتوجه للعلوم الطبيعية وحدها، وإنما يمتد إلى الرياضيات وإلى العلوم الإنسانية، فأزمة العلوم الإنسانية أصبحت أكثر عمقاً ووضوحاً عندما حاولت العلوم الإنسانية أن تحاكي العلوم الطبيعية، وتحولت هي الأخرى إلى علوم للوقائع. بل والأزمة هنا أكثر عمقاً من حيث إنه إذا كانت العلوم الطبيعية قد استبعدت الإنسان من الطبيعة، وجعلت منها مجرد وقائع مستقلة عن خبرته، فإن ما فعلته العلوم الإنسانية أخطر إذ جعلت الإنسان مجرد طبيعة، ومجرد واقعة من وقائعها، وهذا ما نراه بوضوح في دراسات علم النفس التجريبي[٤].

نقطة البدء عند هوسرل هي نقد موجه ضد النزعة الموضوعية وكذلك ضد القصور الوضعي البرجماتي للعلم. وهذا النقد قام به هوسرل ليعيد النظر في الأسس التي قامت عليها كل من المادية الميكانيكية والمكانة المتعالية عند كانط.

ولا يقصد هوسرل من وراء ذلك أن يشكك في فاعلية وقيمة ومستقبل العلوم، وهي التي أحرزت نصراً كبيراً مع بداية القرن العشرين، بل قصد على العكس مهاجمة النزعة الشكية التي قد يؤدي إليها قصور معين للعلم وليس العلم نفسه، وهو القصور الذي قام عليه المنهج الوضعي وأدي إلى

---

(٤) سعيد توفيق: الخبرة الجمالية، دراسة في فلسفة الجمال الظاهراتية هيدجر. سارتر. ميرلوبونتي. دوفرين. إنجاردن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٢، ص ص ١٩-٢٠.

تجريد العلم من أي دلالة إنسانية. فهوسرل يهاجم النزعة الشكية بتأكيد الدلالة الإنسانية للتفكير العلمي. وهو يحذو حذو ديكارت ويجدد محاولته من أجل إقامة العلم، لا على أساس العثور على حقيقة أولية لا تقهر، بل على أساس الالتفات إلى المعني الهام من وراء البحوث العلمية.

وقد ولدت الفلسفة الفينومينولوجية لهوسرل من ازدواج بين لحظتين نقديتين: لحظة نقدية في تاريخ العلوم جعلت أكثر الحقائق استقراراً موضع شك، ولحظة نقدية أخرى في التاريخ الإنساني جعلت الإنسان مطالباً بأن يعيد النظر في أكثر القيم ثبوتاً، وأن يسأل نفسه عن معني وجوده الخاص، وعن معني التاريخ الذي يعيشه(٥).

إن جوهر فلسفة الظاهريات قائم في الكشف عن غموض طبيعة الوعي الإنساني، وفي التأكيد على أن الحياة الشعورية ليست قطاعاً من الطبيعة الفيزيائية. وذلك لأن هذه الحياة تتضمن المبادرة والمسئولية الأخلاقية فالغضب والخوف والقلق .. وغيرها من الظواهر السيكولوجية لا يمكن أن تمر بوعيي كما تمر أية ظاهرة جوية في السماء. والجبن والشجاعة لا يمكن أن توجد في داخلي كشيء طبيعي مثل الوزن والكثافة الخاصة بهذا الجسم. أن هذه الظواهر تتوقف عليَّ أنا، وبدرجات متفاوتة. وفقاً لخبرتي وللوسط الذي أعيش فيه. سواء تركت نفسي فريسة لتعاطي الخمور أو ارتفعت فوق أزماتي لأصل لدرجة البطولة، فإن كل ذلك يتوقف عليَّ . إن الفكرة التي نكونها عن أنفسنا وعن الإنسان تؤثر تأثيراً

---

(٥) روجيه جارودي: نظرات حول الإنسان/ ترجمة . يحيي هويدي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٨٣، ص ص ٢٨-٣١.

عميقاً في فهمنا لمستقبلنا، ولا يمكننا أن نحكم على أنفسنا إلا إذا أحدثنا تغييراً في ذواتنا. فإذا اعتقدت أني جبان بطبيعتي فلابد من أن أقدم لنفسي المعاذير سلفاً وأمهد الطريق أمام تقاعسي هذا. وإذا اعتقدت أنني غضوب وأحمق بطبيعتي فلابد من أن أرفض الوسائل التي تجعلني أسيطر على حماقتي، وأبرر تبريراً مسبقاً كل اندفاعاتي. فالمعرفة في علم النفس تتساوي مع الفعل. بعبارة أخرى فإن العلاقة بين الوعي وموضوعاته في الدراسات الإنسانية لا تمثل علاقة بين واقعتين تقع كل منهما بمعزل عن الأخرى ومستقلة عنها. ففي علم النفس هناك قانون يحكم كل ظاهرة نفسية، وهو القول بأن المعرفة لا صلة لها بموضوعاتها هو قول غير صحيح. لأن المعرفة لا تمثل واقعة ولكنها تمثل فعلاً[٦].

٢- قصدية الوعي:

يرى روجيه جارودي أن الفكرة الجديدة التي أدخلها هوسرل في الفلسفة المعاصرة هي فكرة الاتجاه القصدي أو الوعي القصدي[٧].

فما المقصود بالقصدية؟ الإجابة يقدمها هوسرل بقوله: "نحن نفهم تحت اسم القصدية، تلك الخصوصية الفريدة للخبرة بوصفها وعياً بشيء: فالإدراك هو إدراك لشيء ما، والحكم هو حكم على قضية معينة، والتقييم هو تقييم لقيمة ما، والحب يتعلق بموضوع الحب، والبهجة بموضوع البهجة.. إلخ. والوعي لا يكون متميزاً عن هذه الخبرات القصدية التي تظهر فيه، ولهذا تسمي هذه الخبرات ظواهر، وخاصيتها الرئيسية أنها

---

(٦) المرجع السابق: ص ص ٣٥-٣٦.
(٧) المرجع السابق: ص ٣٦.

تكون ظهوراً أو وعياً. وهكذا فإن الوعي يكون متجهاً دائما نحو موضوع مرتبط به في لحظة ما. وبالتالي فإن الصيغة العامة لقصدية الوعي هي" إن كل وعي يكون وعياً بشيء ما"[٨].

الوعي عند هوسرل يتضمن المبادرة، أي الحرية، أو بعبارة أخرى الوعي يتضمن المفارقة، فهو لا يمكن أن يكون هذا الذي يمنح المعني للظواهر إذا كان مجرد جزء من نسيجها. وإذا كان الوعي هو ما يمنح المعني للأشياء، فلابد من أن نفترض كونه حراً ومفارقاً لذاته.

والاتجاه القصدي ليس ظاهرة سيكولوجية بالمعني الدقيق لهذه الكلمة، أي أنه ليس واقعة من وقائع الطبيعة، وذلك لأنه يتضمن بعداً متعالياً، وهوسرل كان ينظر إلى الفينومينولوجيا بوصفها فلسفة تهيب بالذاتية العارمة بوصفها المصدر الرئيسي لجميع مظاهر الخلق والإبداع التي لها دلالات موضوعية ولكل الأحكام المشروعة التي نصدرها عن الوجود وعن العالم[٩].

ويتمتع الموضوع القصدي عند هوسرل بالاستقلال عن الوقائع الخارجية، فالموضوع الواقعي الذي أدركه، وليكن تلك الشجرة، قد يطرأ عليها تغيير، فتفقد أزهارها، وتتغير ألوانها وظلالها بفعل التغيرات المناخية، بل وقد تدمرها النار. ومع ذلك تظل الشجرة التي تمثلت لوعي على حالها دون تغيير. ومعني ذلك أن موضوعات الوعي لا تتأثر بالتغيرات التي تطرأ على نظائرها في العالم الواقعي، فهي تتأثر فقط بما

---

(٨) نقلاً عن سعيد توفيق: المرجع المذكور، ص ص ٢٩-٣٠.
(٩) روجيه جارودي: ص ص ٣٧-٣٨.

يطرأ علي أفعال الوعي أو القصد من تغيير أو تعديل، أي بما يحدث داخل تيار الوعي نفسه[١٠].

٣- الرجوع للأشياء:

يعتبر شعار الرجوع أو العودة للأشياء الشعار الفلسفي الرئيسي للفينومينولوجيا بما هي منهج وأسلوب تفكير جديد، وهي خيط الربط الأساسي والمتين بين مختلف المفاهيم والمبادئ والنظريات الفلسفية، والذي لم ينقطع أبداً رغم كل التحولات والصياغات المتعددة التي عرفتها الفينومينولوجيا. إنه المبدأ الذي تقوم به الفينومينولوجيا عبر تجلياتها المختلفة[١١].

والمعني الذي يستخدم هوسرل من خلاله لفظ "الشيء"، هو كل ما يمكن أن ندركه من الأشياء المادية: كالحجارة والنباتات والحيوانات، والأشياء المصنوعة، البشر، المشاعر، الانفعالات .. إلخ يتسع مفهوم الشيء هنا ليفيد الإشارة إلى كل ما هو موجود[١٢].

والمعني الفينومينولوجي الحقيقي هو الذي يكون مرادفاً لمفهوم الظاهرة، فالظاهرة هي ما يظهر أو ما بإمكانه أن يظهر، أو بعبارة أخرى كل ما يتجلى كمعطي قابل لحدس الوعي. والظاهرة تطلق على كل ما هو معيش من المعيشات التي تتجلي في حقل الوعي سواء أكان هذا المعيش معطي واقعياً أو معطي قصدياً[١٣].

---

(١٠) سعيد توفيق: المرجع المذكور، ص ٣٣.
(١١) يوسف بن أحمد: المنهج الفينومينولوجي عند هوسرل، دراسة منشورة بالمجلة التونسية للدراسات الفلسفية العدد ٤١/٤٠ ، ٢٠٠٦. سارتر المتعدد. ص ص ٥٨-٦٠.
(١٢) المرجع السابق: ص ٦١.
(١٣) المرجع السابق: ص ٦٢.

وفكرة العالم المعيش قد انبثقت من دراسة وطبع أعمال هوسرل غير المنشورة والتي يشير فيها هوسرل إلى أن أزمة العلوم ترجع في جزء كبير منها إلى إهمالها للعالم المعيش الذي ينبغي لها أن تبدأ منه. والفلسفة يمكنها أن تتجاوز ذلك بأن تركز انتباهها على الحقائق البسيطة واليومية للعالم المعيش مثل: أن لي بدن، وأنني أحيا داخل جماعة مشتركة، وأن العالم يوجد.. إلخ، وهي حقائق بسيطة تركها العلم بلا تفسير، وبذلك فإن العلم يميل إلى إخفاء العالم عنا من حيث هو عالمنا الخاص(١٤).

لقد أراد هوسرل من خلال فكرة العالم المعيش أن يرتد إلى الموقف الفينومينولوجي في بدايته، أو بعبارة أكثر دقة: أراد أن يتجاوز الإشكالات التي أثارتها مثاليته المتعالية. فالعالم المعيش هو العالم الذي نجد فيه أنفسنا. وهو كما يري هوسرل العالم بوصفه معطي لنا بشكل مسبق "Pre-Given" .. عالم الموقف الطبيعي السابق على المعرفة والتأمل. ومن هنا يرى إنجاردن، أن فكرة العالم المعيش ليست اكتشافاً جديداً في مؤلف "أزمة العلوم" كما يذهب البعض، لأنها ليست شيئاً آخر سوي عالم الموقف الطبيعي الذي قدمه هوسرل في الجزء الأول من كتابه الأفكار(١٥).

٤ـ حدس الماهية:

إذا كانت الفينومينولوجيا تدعونا إلى العودة للأشياء وإلى التحرر من الفروض المسبقة، فإنها تدعونا إلى البدء مما هو معطي لنا في الخبرة المباشرة، وعدم تجاوزه بشرط ألا نفهم الخبرة المباشرة على أنها تلك الخبرة الحسية، وألا

---

(١٤) سعيد توفيق: المرجع المذكور: ص ص ٤٤-٤٥.
(١٥) المرجع السابق: ص ٤٥.

نفهم المعطي على أنه المحسوس الذي يتحدث عنه التجريبيون والظاهريين، والقول بأنه ليس هناك شيء وراء الظواهر قول صحيح، ولكن في هذه الظواهر يكمن كل ما نريد أن نكشف عنه من ماهيات ودلالات ومعان[١٦].

بعبارة أخرى فإن الفينومينولوجيا رغم أنها تترجم إلى ظاهرية أو ظاهريات أو ظاهرياتية، وهي ألفاظ توحي بأن الفينومينولوجيا تبحث فيما هو ظاهري، في حين أن حقيقة الأمر أن الفينومينولوجيا تستهدف دراسة "ماهيات الظواهر لا ظاهرها". أو بمعني أدق تستهدف دراسة الظواهر كما تظهر في الوعي أو في خبرة الإنسان. فالظاهرة الفينومينولوجية هي ما يظهر للوعي في أساليب وأشكال متنوعة: فالإدراك الحسي ظاهرة، والتخيل ظاهرة، والانفعالات ظواهر ... وهدف الفينومينولوجيا أن تدرس هذه الأساليب المتنوعة لتجلي الظواهر، أي تدرس هذه الظواهر بوصفها ظواهر حية من لحم ودم وتحمل معني[١٧].

إن الظريف في النظرية الفينومينولوجية أنها حاولت هدم الثنائية القديمة بين الظاهر والماهية، وبادرت بهدم الجدار الفلسفي الذي ظل مسيطراً على تاريخ الفلسفة بسبب فصل الماهية عن الظاهرة كنتيجة محتومة للتقسيم الأنطولوجي للوجود الذي تم على يد أفلاطون الذي شطر الوجود إلى قسمين: عالم المثل، وعالم الأشياء المحسوسة أو الظاهريات. لكن في الفينومينولوجيا أصبح للماهية دلالة ووظيفة جديدة. فالظاهرة لم تعد بنظر الفينومينولوجي مجرد مظهر زائف، بل أصبحت إظهاراً كلياً

---

(١٦) المرجع السابق: ص ٢٦.
(١٧) المرجع السابق: نفسه

وحقيقياً للوجود والماهية بدروها لم تعد مثالاً مفارقاً للتجربة، بل أصبحت شيئاً معطي له وجوده المادي، ويمكن إدراك حضوره العيني كموضوع معرفة بفضل عملية الحدس. فالماهية الفينومينولوجية أصبح لها حضوراً عالمياً وموضوعياً ومباطناً للوعي بما يمكنها من أن تصبح موضوع حدس وقصدية بالنسبة إلى الكوجيتو أو اليقين الذاتي الذي يتم داخل الوعي. وهذا أمر جديد وحديث لم تعرفه الأفلاطونية ولا المدارس المثالية التقليدية[١٨].

إن هدف الفينومينولوجيا هو الوصول للماهية، أي إلى المضمون العقلي المثالي للظواهر، فالماهية مستقلة عن الإنسان، وهي تفرض نفسها عليه من حيث إن وجودها موضوعي. وفي هذا السياق يمكن القول بأن كل موضوعي حسي ومفرد له ماهيته الخاصة والفريدة. وإذا كان كل ما هو فردي وجزئي عرضياً في وجوده الواقعي، بمعني أنه قد يوجد أو لا يوجد، إلا أنه يوجد بقلب ذلك العرضي ماهية أي صورة جوهرية وهذه الصورة هي ما يتعين على الفينومينولوجي إدراكها بصورة مباشرة[١٩].

فينومينولوجيا سارتر وتطبيقاتها:

لا شك أن الفينومينولوجيا منهج له ملامحه الخاصة، وله قواعده ومنطلقاته التي أشرنا إليها فيما سبق من فقرات هذا الفصل، ولكن لا يوجد فينومينولوجيا واحدة وإنما يوجد فينومينولوجيات متعددة. فيمكن أن نتحدث عن فينومينولوجيا هيدجر أو ميرلوبونتي أو فينومينولوجيا باشلار أو إنجاردن. وسارتر في مقدمة

---

(١٨) يوسف بن أحمد: المرجع المذكور، ص ص ٧٧-٧٨.
(١٩) حسن حماد: المرجع المذكور، ص ٢٠.

الفلاسفة الوجوديين الذين حاولوا أن يصبغوا الفينومينولوجيا بصبغتهم الفلسفية الخاصة. ولذلك أخذت الفينومينولوجيا عنده شكلاً خاصاً ومتميزاً عن هوسرل وعن سائر من اتخذوا هذا المنهج سبيلاً لهم. وسنحاول قدر ما نستطيع من جهد أن نكشف عن هذه الملامح الخاصة بفينومينولوجيا سارتر.

وسارتر في أحد مقالاته المنشورة بالمجلة الفرنسية الجديدة عام ١٩٣٩ بعنوان: "فكرة رئيسية في ظاهريات هوسرل: "الاتجاه القصدي" يقول: "يوجد الوعي والعالم في وقت واحد. فإذا كان العالم يقع بطبيعته خارج حدود الوعي فإن وجوده مرتبط به ارتباطاً جوهرياً .. أما الوعي نفسه فقد تطهر ... ولا شيء أصبح موجوداً فيه سوي هذه الحركة التي تدفعه إلى أن يهرب من نفسه، وتلقي به خارج ذاته ... والمعرفة معناها أن يتجه نحو شيء ما ... تصور معي سلسلة من الدفعات التي تخرجنا من ذواتنا وتلقي بنا في الخارج بحيث لا تترك لنا فرصة التفكير في نفوسنا خلفها بل تلقي بنا على العكس من ذلك أمامها متجاوزين إياها.. تصور إذن أنه قد ألقي بنا هكذا وسط الأشياء، وأننا قد تركنا بطبيعتنا في هذا العالم غير المبالي بنا، المعادي لنا، الذي يواجهنا ليردنا على أعقابنا ... إذا تصورت هذا فإنك ستفهم المعني العميق وراء هذا الاكتشاف الذي قدمه هوسرل والذي عبر عنه في هذه العبارة الشهيرة: كل وعي هو وعي بشيء ما ... وهذه الضرورة في أن يوجد الوعي باعتباره وعياً بشيء أخر غيره هي التي يطلق عليها هوسرل اسم "الاتجاه القصدي"[٢٠].

وتذكر "كاثرين موريس" في كتابها عن سارتر أنه هوسرل جاء إلى

---

(٢٠) نقلاً عن روجيه جارودي: المرجع المذكورة، ص ٤٥.

فرنسا عام ١٩٢٩ ليلقي عدداً من المحاضرات في السوربون، تلك المحاضرات التي صارت فيما بعد هي الأساس لمؤلفه "تأملات ديكارتيه" ونبه ليون برنشفيج تلامذته إلى أهمية هذا الحدث الفكري الكبير، غير أن سارتر لم يحضر. وقد روت رفيقة سارتر "سيمون دي بفوار" عام ١٩٣٣ أنها في أحدي اللقاءات التي جمعت بينها وبين سارتر والمفكر الفرنسي ريمون أرون، وكان اللقاء في ملهي "بك دي جاز" Bec de Gaze وذكرت أنهم طلبوا كؤوساً مما يتميز به هذا المحل وهو كوكتيل المشمس، وعندئذ قال أرون وهو يشير إلى كأسه: "أفهم هذا أيها الصاحب العزيز، إن كنت من معتنقي الفينومينولوجيا، فلك أن تتحدث عن هذا الكوكتيل وتجعل منه فلسفة" وتغير لون سارتر من فرط الانفعال لما سمع، وقال بأن هذا بالضبط ما كان يتوق إلى إنجازه خلال السنوات الماضية، أن يصف الأشياء تماماً كما يراها، ويستخلص فلسفته من ذلك! ولما كان ريمون أرون قد أشار على سارتر بقراءة ما كتبه "إيمانويل لفيناس" من تمهيد لمذهب هوسرل في الفينومينولوجيا، فلا غرابة أن نعرف أن دخول سارتر إلى الفينومينولوجيا كان من خلال لفيناس[٢١].

وقد ظل سارتر طيلة حياته منطلعاً إلى الاشتباك بهذا الواقع الحي، مستخفاً بأي تحليل يتعامل مع الواقع كأمر خارجي أو كجثة هامدة خارج نطاق الوعي. ولكن يجب أن نوضح أن سارتر لم يكن متابعاً لهوسرل بصورة حرفية وإنما اختلف معه وعنه في كثير من الجوانب والموضوعات. فإذا كان هوسرل قد أراد مثل ديكارت أن تكون لديه فلسفة

---

(٢١) كاثرين موريس: المرجع المذكور، ص ٣٠.

مطلقة اليقين أو تكون بحسب تعبيره علماً دقيقاً فإن سارتر لم يكن موافقاً على هذه النزعة الدوجماطيقية أو اليقينية التي كان يهدف لها هوسرل[٢٢].

من جانب آخر طالبنا هوسرل أن نضع العالم بين قوسين وأن نتوقف عن الحكم أو ما يطلق عليه في الألمانيةُEpoche (الأبوخية) وهو ما يعني أن نتحرر من كل تصوراتنا وأحكامنا وخبراتنا السابقة. وهذا ما رآه سارتر مستحيلاً، وهذا ما يظهر بوضوح في تأملات "روكنتان" بطل رواية سارتر: "الغيثان" . ومن ثم فإن صيحة هوسرل التي أطلقها من أجل العودة إلى الأشياء نفسها لم تحقق ما كان سارتر يهدف إليه عندما كان يأمل في أن يستخرج فلسفة انطلاقاً من تأمل كأس الكوكتيل. غير أن هذه التحفظات لم تمنع سارتر من أن يقدر الجهد الذي قام به هوسرل ويطوره وفقاً لفلسفته الخاصة[٢٣].

إن هذه التحفظات والاختلافات في المنطلقات الفكرية لسارتر لم تقلل من قيمة وأهمية هوسرل، إذ يؤكد سارتر في أكثر من مكان وهذا ما يقوله سارتر في كتابه عن التخيل:

"وعلى كل حال، فقد فتح هوسرل الطريق، وما من دراسة للصورة يمكن أن تهمل اللمحات الفنية التي يقدمها لنا. ونحن نعلم الآن أنه يجب الانطلاق من جديد من الصفر، ونهمل كل ما كتب قبل الظاهرية، ونحاول قبل كل شيء اكتساب رؤية حدسية للبنية القصدية للصورة"[٢٤].

---

(٢٢) المرجع السابق: ص ٣١.
(٢٣) المرجع السابق: نفس الصفحة.
(٢٤) جان بول سارتر: التخيل، ترجمة نظمي لوقا، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٨٢، ص١١٥.

وفي كتابه "نظرية في الانفعالات" يوضح سارتر كيفية تطبيق الفينومينولوجيا على دراسة الظواهر السيكولوجية ومنها الانفعالات، بقوله أن الفينومينولوجيا هي دراسة الظاهرات لا الوقائع. والمقصود بالظاهرة "ما يتبدى بذاته"، أي ما تكون حقيقته الظهور، فكينونة الموجود ليست شيئا يتستر وراءه شيء آخر لا يظهر. وما دام الظاهر هو المطلق هنا ، وهو ما نملكه، كان الظاهر هو ما ينبغي علينا وصفه وسؤاله. ومن هذا الجانب يرى هيدجر أننا نعثر على الواقع الإنساني كله في كل موقف إنساني، فالانفعال مثلاً هو الواقع الإنساني متخذا هذه الصورة، الواقع الإنساني وهو يتجه منفعلاً نحو العالم. ويرى هوسرل أن وصفاً فينومينولوجياً للانفعال سوف يكشف لنا عن الأبنية الجوهرية للشعور، لأن الانفعال ما هو إلا شعور، وهل يمكن لنا أن نتصور شعوراً لا يكون الانفعال جزءاً من بنيته أو ضمن ما يحتويه من إمكانات؟

وإذا كان عالم النفس يعترف بوجود الانفعال دون أن يعرف معناه فإن الفينومينولوجي على العكس يرى أن كل واقعة إنسانية هي في ماهيتها معني ودلاله. فإذا جردتها من معناها، فإنك تجردها من طبيعتها كواقعة إنسانية. مهمة الفينومينولوجي إذن هي دراسة معني الانفعال والكشف عن دلالاته. فإذا أردنا أن ندرس الانفعال دراسة فينومينولوجية وأن نجعل منه ظاهرة شعورية حقاً تعين علينا أن نعتبره ذا معني في المحل الأول. أي أننا نؤكد أنه موجود بقدر ما يكون له معني. ولا يجب أن ننشغل بالوقائع والاضطرابات الفسيولوجية، فهي موجودة فحسب. بيد أن هدفنا سيكون توضيح مدلول الانفعال من حيث إنه يدل على الشعور كله أو

على الواقع الإنساني برمته. فالانفعال هو هذا الواقع الإنساني حين يحقق ذاته في صورة انفعال[٢٥].

عموماً فإن سارتر في توظيفه للفينومينولوجيا يحاول أن يتجنب الكثير من المزالق التي تورط فيها هوسرل. فلم يقف سارتر عند حدود الكوجيتو الديكارتي أي الأنا أفكر، وإنما مضي إلى ما يقصد إليه الوعي من أشياء. ومن هنا أمكن لسارتر أن يؤسس أنطولوجيا للوعي القصدي دون أن يقف عند الوعي كما فعل هوسرل، ودون أن يهمل الوعي وينشغل بالوجود العام كما فعل هيدجر. إن اتجاه الوعي عند سارتر إلى الموجودات التي يدرها إنما هو تأكيد للأنا الواعي وتأكيد للأشياء الخارجية أيضاً[٢٦].

وإذا كان الوعي كما تقرر فكرة القصدية هو وعي بشيء ما، أعني وعي متجه إلى موضوع ما، فإن هذا يعني أن الموضوع ذاته موجود، وأن الوعي في اتجاهه إلى الموضوع ليس إلا وعياً وشعوراً ومعرفة. فالوعي يقتضي وجودين: وجوداً هو الوعي، ووجودً خارجياً متمايزاً من هذا الوعي[٢٧].

هوسرل من وجهة نظر سارتر لم يستطع أن يتجاوز الوصف الخالص للظاهرة من حيث هي كذلك، فقد ظل في نطاق الوعي الخالص

---

(٢٥) جان بول سارتر: نظرية في الانفعالات، ترجمة سامي محمود علي وعبدالسلام القفاش، دار المعارف بمصر، ص ص ٢٥-٢٧.

(٢٦) حبيب الشاروني: فكرة الجسم في الفلسفة الوجودية، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٤، ص ٩٢.

(٢٧) المرجع السابق: نفس الصفحة.

بعد أن علق النظر في الوجود الواقعي للأشياء، ورغم اكتشافه لفكرة القصد، وهي الفكرة التي تربط ربطاً وثيقاً بين الذات والموضوع بما بينهما من إحالة متبادلة، رغم ذلك أنزلق هوسرل إلى شكل من أشكال التصورية المطلقة وظل أسيراً في نطاق الوعي، دون الذهاب إلى ما يقصد إليه الوعي من أشياء وموضوعات[٢٨].

أما سارتر فيتخذ نقطة انطلاقه من الكوجيتو الديكارتي، لكنه يتخطاه. فالفينومينولوجيا عند سارتر هي فينومينولوجيا جامعة: أنها لا تقف عند الأنا أفكر أي الوعي الخالص، ولكنها تذهب إلى ما قصد إليه الوعي من أشياء. فسارتر يعارض منذ البداية أي محاولة للتوحيد بين الأنا الواعي والأشياء الخارجية كما فعل برجسون. وهو يعارض كذلك أن محاولة لإزالة الذات الواعية أو الموضوع، بابتلاع أحدهما للآخر. فهو إذ يقيم أنطولوجيا، أي علم للوجود على أساس المبدأ الفينومينولوجي للقصد إنما يفصل بين الوعي والأشياء دون أن يقف عند حدود الوعي كما فعل هوسرل، دون أن يترك الوعي لينشغل بالوجود العام كما فعل هيدجر[٢٩].

الخاتمة:

وعلى هذا النحو حاول سارتر أن يؤسس لفينومينولوجيا جديدة قوامها مقولتا القصد والانفصال: بعبارة أخرى جعل سارتر الوعي يقوم بحركتين متعاكستين: الحركة الأولى هي حركة اتجاه الوعي إلى الأشياخاتمة:ء

---

(٢٨) حبيب الشاروني: فلسفة جان بول سارتر، منشأة المعارف بالإسكندرية، بدون تاريخ، ص ١٠٤.

(٢٩) المرجع السابق: ص ١٠٦.

مما يترتب عليه عدم الوقوع في المثالية التي لا تعترف بالواقع الخارجي، والحركة الثانية هي حركة انفصال الوعي عن الأشياء التي يفترض الوعي وجودها[٣٠].

ويؤكد سارتر مراراً فكرة ارتباط الوعي بالأشياء على نحو جدلي، بحيث تصبح الفينومينولوجيا لديه دراسة وتحليلاً لكل ما يظهر للوجود الواعي. فهو يصف كيف يتعلق الوعي – لا بوصفه مادة أو عملية – بل باعتباره حضوراً إنسانياً في العالم بشتي أنواع الحضور المختلفة. فالوعي كما تقول "سيمون دي بفوار" : ينتزع الأشياء من غيبوبتها اللاواعية .. ويعطيها لونها ورائحتها" وهو إذ يفعل ذلك فإنما يعتبر مؤقتاً أن الأشياء الأخرى التي لا يقصدها غير موجودة ويقذف بها في العدم، وهو من جانب آخر يعي الشيء الذي يتجه إليه ويتميز عنه في نفس الوقت، وعلى ذلك ليس الوعي شيئاً بذاته أو مادة تفكر ولكنه مجرد القدرة على الاتجاه نحو الأشياء والتميز عنها في نفس الوقت[٣١].

فالوعي إذن هو مجرد مثول أمام الأشياء وتميز عنها. وهذا التميز هو الذي يحد الأشياء ويعرفها دون أن يكون خاصية لها، إنه مجرد تميز وانفصال مما هو موجود. فالانفصال هو الشرط اللازم لإمكان المعرفة.

والوعي لا يقف من العالم والأشياء عند حدود المعرفة، وإنما هو يعمل في العالم مغيراً في مادته ومبدلاً في طبيعته. ولأجل الشروع نحو

---

(٣٠) حبيب الشاروني: الوجود والجدل في فلسفة سارتر، منشأة المعارف، الإسكندرية، بدون تاريخ، ص ٣٤.

(٣١) المرجع السابق: ص ٢٣.

الغاية ينبغي الانفصال عن الحالة الراهنة وعما هو كائن بالفعل. فالانفصال إذن هو الشرط الضروري لإمكان العمل. وهذا الانفصال الذي يتيح إمكان المعرفة وإمكان العمل هو ما يؤسس التركيب الأنطولوجي للوعي. فالوعي هو انفصال مستمر ومفارقة دائمة. إن الوعي ليس له ماهية ثابتة وإنما هو وجود قوامه الانفصال المستمر عن الأشياء من حوله والتجاوز الدائم لذاته وماضيه. ولا شك أن هذا وبالذات، أعني انفصال الإنسان عن الأشياء وعن ذاته وعن ماضيه هو ما يتيح للوعي حريته الدائمة[٣٢].

وهكذا فإن كل اتجاه قصدي نحو فعل ما أو عاطفة ما يمثل اختياراً من جانب الذات لنفسها، اختياراً غير خاضع للتفكير والتدبر، ولكنه اختيار يعيشه الفرد ويحياه. فكل ما اختاره في حياتي اليومية يعبر عن اختيار أصيل، وهذا الاختيار هو اختيار الموقف الرئيسي الذي أقفه تجاه العالم. وهذه الفكرة تمثل المشروع الرئيسي الذي حاول سارتر بكل جهده أن يقدمه لنا في "الوجود والعدم"، وثمة فكرة جوهرية تسيطر على مجمل نظريته في الانفعالات والتخيل والمشاعر عموماً، وهي أن الإنسان يمثل كلا متكاملاً وليس مجموعة عناصر، وهو يعبر عن نفسه بكليته تلك في كل فعل من أفعاله مهما كان تافهاً أو سطحياً[٣٣]

---

(٣٢) المرجع السابق: ص ص ٢٣-٢٤.
(٣٣) جارودي: المرجع المذكور، ص ٩٨.

المراجع

حسن حماد: المشاعر عند سارتر، مدخل للتحليل النفسي الوجودي، مجاز للترجمة والنشر، القاهرة ٢٠١٨

جان بول سارتر: نظرية في الانفعالات، ترجمة سامي محمود علي وعبدالسلام القفاش، دار المعارف بمصر

جان بول سارتر: التخيل، ترجمة نظمي لوقا، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٨٢.

جمال مفرج: الفينومينولوجيا الهيرمينوطيقية عند هايدغر أو الفينومينولوجيا بوصفها تأويلاً: دراسة منشورة بمجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقص، وحدة بحث الفينومينولوجيا، ٤ فبراير ٢٠٠٦

سعيد توفيق: الخبرة الجمالية، دراسة في فلسفة الجمال الظاهراتية هيدجر. سارتر. ميرلوبونتي. دوفرين. إنجاردن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٢

روجيه جارودي: نظرات حول الإنسان/ ترجمة . يحيي هويدي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٨٣

كاثرين موريس: جان بول سارتر: ترجمة أحمد على بدوي، المركز القومي للترجمة، مصر، الطبعة الأولي ٢٠١١

يوسف بن أحمد: المنهج الفينومينولوجي عند هوسرل، دراسة منشورة بالمجلة التونسية للدراسات الفلسفية العدد ٤١/٤٠ ، ٢٠٠٦. سارتر المتعدد